الحلقة الأولى

رؤيا يوسف الصديق عليه السلام

أبناء يعقوب يفكرون فى قتل أخيهم يوسف

يتحايلون على أبيهم ليذهب يوسف معهم

يعقوب يخاف الذئب على يوسف

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الأولى

﴿ الـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ .

أشعار الحلقة الأولى

اللـــهُ قَالَ مُحَدّثـــاً فِى مُحْكَمِ الـــذّكْرِ المبـــين ١
لـــلـمُصْطَفَـــى الـــهَادِى إمـام الأنْبِيَاء المـــرْسَلِين ٢
عَنْ أحْسَنِ الـــقَصَصِ الـــتّى هِىَ عِبْرَةٌ لِلْعَالمـــين ٣
عـــن يُوسُف الـصّدِيـــق مَع إخْوانه المـسْتَهْتَريـــن ٤
فَلـقَدْ رأى الـصّدّيقُ رُؤيـا ، نِعْمَ رؤيـا الـصّالحين ٥
رُؤْيـــاهُ تلـــك تَطَاوَلَتْ بـــالـــذّكْرِ بَيْن الخَالديـــن ٦
فَلـــقَدْ رَأى شَمْســـاً وقَمَراً مـــع نُجُومٍ ظَاهريـــن ٧
الـــــكُلّ قَدْ سَجَدُوا لـــــه حَقّاً سُجُودَ الخَاضعين ٨
يَحـكِى رُؤاهُ إلـــى أبيـه مـنَ الـــشّيُوخ الـطّاعنين ٩
الـــشّيْخُ يَفْهَم أنّهَا صِدْقٌ مِنَ الـــعِلْم المـــكين ١٠
فَوْراً يَقُولُ لِيُوسُف الصّدِيق ذِى الـعَقْل الفَطِين ! ١١
لا تَقْصُص الـــرُّؤْيـــا عَلَى إخْوانك المـــتَعَنّتين ١٢
قَدْ يَحـــقِدُون عَلَيـك فَاحْذَرْ بَطْشَةَ المـــتَحَفّزيـــن ١٣
لاشَكّ لـــلـــشّيْطـــان نَزْغٌ فِى قُلُوب الحَاقديـــن ١٤
هُوَ أخْطَر الأعْداء لـلإنْسـان فِى الذّكْرِ المبِين [1] ١٥
ولَسَوْفَ تُصـــبِحُ إنْ يـــشَأْ ربّى مِنَ المـــتَنَبّئين ١٦
وتَفَسّر الأحْلامَ ذَاكُم فَضْلُ رَبّ الـــــعَالمين ١٧
لـقَدْ اصْطَفَـى الآبـــاء قَبْلاً ، فِى عداد المـرْسَلِين ١٨
هُوَ فَضْل رَبّ الـــعَرْش يُعـــطَى لِلْعِبَاد المخْلصِين ١٩
أبـنـــاء يَعْقُوب غَدَوا فِى ألْسُنِ المـتَسَائلـــين ٢٠
فِى شَأنِهـــم قَالَ الإلـه ، فنِعْمَ خَيْر الـــقَائلـــين ٢١
قـالـوا لِبَعْضٍ حَيـــث كَانُوا فِى حَدِيـث هَامسين ٢٢
هَاكُم مـــقـالـــتـــهـــم فَبِئْسَ مَقَالَـةُ المـتَطَاولين ٢٣
الـشّيـخ فِيـه ضَلالَةُ ، فـلـتَعْلَمُوا الـعِلْم الـيَقِين ٢٤

---

(١) فى الذكر المبين : من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ سورة فاطر آية رقم ٦ .

أعْطَى لِيُوسُفَ حُبَّـه وأخيـه مِنْ دُون البَنِين ٢٥
أعْطَاهُمَا حُبّاً وقَد صِرنَا جَمِيعاً مُهْمَلِين ٢٦
هَذَا لَعَمْرُ اللّه ظُلْمٌ مِنْ أبٍ فِي النّابِهِين ٢٧
إنّا نُرِيدُ عِقَابَه ، حَتّى يَتُوبَ وَيَسْتَبِين ٢٨
فَلَنَقْتُلَنّ غُلامَه حَتّى نَكُونَ الفَائِزِين ٢٩
إذْمَا قَتَلْنَا حِبَّهُ يَهْدَأ هَدُوءَ المُكْرَهِين ٣٠
ونَفُوزُ بالحُبِّ الّذِى لَمْ نَلْقَهُ طُولَ السِّنِين ٣١
ولَسَوْفَ نَغْدُو بَعْدَ ذَلِك فِي عِداد الصّالِحِين ٣٢
لَكِنّ أكْبَرَهُمَ يَقُولُ ، وكَانَ ذَا عَقْلٍ فَطِين : ٣٣
لا ، لا أوافِقُكُم عَلَى قَتْلِ الغُلام المُسْتَكِين ٣٤
يَاإخْوَتَاهُ لتَعْلَمُوا ، فَالقَتْلُ فِعْل المُجْرِمِين ٣٥
والرأيُ عِنْدِى فَاسْمَعُوه ، وَلا تَكُونُوا مُعْرِضِين ٣٦
فِي قَعْرِ جُبٍّ أنْزِلُوه ، وَعَنْه عُودُوا قَافِلِين ٣٧
بَعْضُ القَوَافِلِ عَلّهم إذْمَا يَكُونُوا رَاحِلِين ٣٨
إنْ يَأت وَارِدُهُم ، فَسَوْفَ يَعُودُ بالصَّيْدِ الثّمِين ٣٩
هَذَا هُو الرَّأيُ الصَّوَابُ ، فَلا تَكُونُوا جَاهِلِين ٤٠
كَيْفَ السَّبِيلُ لكَى يَتِمَّ مُخَطَّطُ المُتآمِرِين ؟! ٤١
جَاءُوا أبَاهُم فِي ثِيَابِ الزّهْد كَالمُتَبَتِّلِين ٤٢
قَالُوا لَه قَوْلاً كَذُوباً ، بِئْسَ قَوْمًا كَاذِبِين ٤٣
لِمَ لَمْ تَثِقْ فِينَا ، فَلَسْنَا يَا أبَانَا خَائِنِين ٤٤
هَذَا أخُونَا يُوسُف فِي البَيْتَ يَقْعُدُ كَالسَّجِين ٤٥
أرْسِلْه مَعَنَا صُحْبَةَ الأغْنَامِ نَغْدُو لاَعِبِين ٤٦
إنّا سَنَحْرُسُه ، وَسَوْفَ يَعُودُ عَوْدَ الآمِنِين ٤٧
فَأجَابَهُم ، لا تَأْخُذُوه ، أخَاف من غدر السنين ٤٨
الذّئْبُ يَأْكُلُه ، وأخْشَى أنْ تَكُونُوا غَافِلِين ٤٩
قَالُوا لَه : هَذَا المَقَالُ يُسِيئُنَا فِي العَالَمِين ٥٠
تَاللّه إن يَأكلْ أخَانَا الذئبُ ، صِرنَا خَاسِرِين ٥١
إنّا رِجَالٌ أقْوِيَاءُ نَقِيه شَرّ الكَاسِرِين ٥٢
كَذَبُوا لَقَدْ خَانُوا الأَمَانَة ، لَمْ يَكُونُوا صَادِقِين ٥٣

القرآن أحسن القصص

﴿ الـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾

اللـهُ قَالَ مُحَدِّثاً فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ المُبِين ١
لِلمُصْطَفَى الهَادِي إمام الأنْبِيَاء المُرْسَلِين ٢
عَن أحْسَنِ القَصَصِ الَّتِي هِيَ عِبْرَةٌ لِلْعَالَمِين ٣

هذه الأحرف المقطعة . . ألف . . لام . . راء ، فى أول السورة ، هى رموز وإشارات لا يعلم تأويلها إلا الله ، ثم الراسخون فى العلم . . تلك آيات الكتاب . . هذه هى آيات القرآن الكريم . . المبين . . الواضح الجلى ، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ، ويفسرها ويبينها .

إنا أنزلناه قرآنا عربيا . . وذلك لأن لغة العرب هى أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى . . فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدى ، إنزاله فى أشرف شهور السنة ، وهو رمضان . . هذا قول المفسر الكبير ابن كثير . . وأضيف كان بدء نزوله فى أشرف ليلة ، وصفت بأنها خير من ألف شهر ، هى ليلة القدر .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾ .

الضمير « نحن » هو الله سبحانه وتعالى ، وفيه استدعاء للرسول الكريم ، ومداناة له من ربه ، وتكريم لذاته ، صلوات الله وسلامه عليه ، بهذا الحديث الذى يتلقاه عن ربه بغير واسطة .

و﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ . . أصدقه حديثاً ، وأشرفه غاية ، وأكرمه مقصداً ، وأقومه طريقاً ، وهو قصص القرآن الذى يقصه الله تعالى . القصص القرآنى للأستاذ عبد الكريم الخطيب .

قال ابن كثير : فكمل من كل الوجوه . . ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يقص علينا المولى جلت قدرته ، فى محكم آياته ، وذلك فيما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ والخطاب موجه إلى الناس جميعا من خلال خاتم الأنبياء وإمامهم .

يقص علينا أروع وأحسن القصص ، وأعجبها أيضاً . . . لقد ذُكرت قصص الأنبياء

فى القـرآن الكريم ، إلا أنك تجد القـصة الواحدة ذكرت مـتفرقة فى أكثـر من سورة ، بحيث يتصور البعـض ممن ليس لهم دراية بأساليب اللغة العربـية ، أن تكرار القصة فى سورة بعد أخرى ، إنما هو تكرار لمعنى واحد ، وذلك ليس من البلاغة فى شىء . . !

والواقع أنه ليس كذلك ،فتكرار القصة فى سورة بعد أخرى،له عدة أسباب منها :

الإضافة . .فالذى يذكر فى السورة الثانية ،لا يخلو من إضافة تزيد المعنى وضوحاً ، ومنها أيضاً تنويع الأسلوب : فأسلوب القرآن الكريم ، يتنوع من سورة لأخرى ، فلكل سورة من سور القـرآن نظمها وموسيقاهـا وإيقاعها . . وهذا مما تفرد بـه القرآن الكريم ببلاغـته التى تحدى بـها الثقلين : الجـن والإنس . . ومما يؤكد فـضل القرآن بأسـلوبه وقصصه، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه جابر بن عبد الله ، أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى ، فغضب وقال : « أمتهـوكون ـ متحيرون ـ فـيها يا ابن الخطـاب . . ؟ ! والذى نفـسى بيـده لقد جئتكم بهـا بيضاء نقية ، لاتـسألوهم عـن شىء ، فيخبروكم بحق فتكـذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن مـوسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى . .» رواه الإمام أحمد فى مسنده .

إخوة يوسف ليسوا أنبياء

﴿ ... بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

عن يُوسُف الصّديق مَع إخْوانِه المُسْتَهْتِرِين ٤

إنها قصة يوسف الصديق ، مع إخوانه الذين أعماهم الحقد والحسد ، فانزلقوا إلى حضيض التفكير الإنسانى .. كيف .. ؟!

لقد ركب الشيطان رءوسهم ، فزين لهم السوء فأطاعوه ، فمن ثم ارتكبوا أسوأ وأشنع جريمة فى تاريخ البشرية ، لقد أعادوا إلى الأذهان ،قصة قابيل مع أخيه هابيل ، تلكم هى أول جريمة وقعت على الأرض .

بيد أن جريمة أبناء يعقوب مع أخيهم يوسف ، أشد بشاعة من جريمة قتل قابيل أخاه هابيل .. ذلك لأن قابيل كان واحداً لا شريك معه فى تفكيره .. والشيطان يستطيع أن يلعب بالواحد وبالاثنين فقط ، لكنه لا يستطيع أن يلعب بالثلاثة فأكثر ، وذلك من واقع قول المعصوم محمد ﷺ حيث قال: « الراكب شيطان،والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب » هذا فى السفر إذ ينبغى أن يكون المسافرون فى الصحراء أكثر من اثنين .. ولاغرو فالجماعة تبدأ من ثلاث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم ، القاصية » والذئب هنا هو الشيطان .

وإخوة يوسف كانوا عشرة رجال ، ليس واحداً ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، بل كانوا عشرة ، أصغرهم قد ناهز الاحتلام ، قد أجمعوا كلهم على التخلص من يوسف، وكان أصغرهم كلهم سناً ، ولا ذنب له إلا أن أباه قد أحبه ففضله على جميع أولاده ، وذلك لما فيه من المزايا .

إن أبناء يعقوب بصنيعهم الحقود مع أخيهم يوسف ، قد خالفوا ما هو متعارف عليه من العقل والمنطق والعرف والشرع ، بأن الشيطان لا يستطيع أن يلعب بالجماعة .

ومما هو جدير بالذكر،فإن أخوة يوسف ليسوا من الأنبياء،إذ لا دليل لدينا،ولا نص يؤكد نبوتهم ، وكيف يكونون أنبياء ، أولئك الذين فكروا فى الجريمة،بل وأتوها !!!

فمن المعروف أن الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها، ولاسيما عن الكبائر، وإخوة يوسف قد تلوثت أيديهم بالجريمة، بحقدهم على أخيهم يوسف لمكانته فى قلب أبيه، والحقد لا يمكن أن يكون من صفات الأنبياء. إذن فلا حرج علينا فى أن نطلق ألسنتا عليهم، وأن نصفهم بما يستحقونه، من واقع سلوكهم الذى قصه علينا القرآن الكريم.

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ إن رسول الله ﷺ ، كان غافلا عن هذا الأمر ، لم يكن يتوقع أنه سيكون نبياً يوما ما ، إلى أن فجأه الوحى على رأس الأربعين من عمره ، وهو فى غار حراء .

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى وإن الحال والشأن ، أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن ، لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرع سمعك ، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب (١) .

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ يريد من قبل أن نوحى إليك ، غافلاً عن قصة يوسف وإخوته ؛ لأنه ﷺ إنما علم ذلك بالوحى .

ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين ، عن الدين والشريعة قبل ذلك . كما قال تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى : ٢٥] (٢) .

---

(١) مجلد ٢ ص ٤١ صفوة التفاسير .

(٢) مفاتيح الغيب تفسير الآية (٣) .

الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

فَلَقَدْ رأى الصِّدّيقُ رُؤيا ، نِعْمَ رؤيا الصَّالحين ٥
رُؤْيَاهُ تلك تَطَاوَلَتْ بالذِّكْرِ بَيْن الخَالدين ٦
فَلَقَدْ رَأى شَمْساً وقَمَراً مع نُجُومٍ ظَاهِرين ٧
الكُلّ قَدْ سَجَدُوا لَهُ حَقّاً سُجُودَ الخَاضِعِين ٨

يوسف الصديق ، يرى رؤيا منامية ، ونعم رؤى الصديق ، فالإنسان الصادق لا تكذب رؤياه ، ولا سيما الذين اصطفاهم الله من خلقه ، وهيأهم لحمل أعباء الرسالة مثل : يوسف الصديق وأضرابه .

ومن المعلوم ، فرؤيا يوسف الصديق هذه ، قد بلغت من الشهرة التاريخية ، ما جعلها ماثلة فى الأذهان ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بيوسف الصديق ، بحيث عرفت به ، وهو قد عرف بها . . فماذا رأى يوسف الصديق . . ؟!

لقد رأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، رآهم جميعاً قد سجدوا له . . يالله !! إنها لرؤيا تستحق الاهتمام من رائيها ، حتى وإن كان فتى صغيراً ، فكونه يرى الشمس والقمر ونجوماً محددة العدد ، هذه الكواكب العظيمة التى نراها فى السماء ، يراها غلام صغير فى رؤياه ، تتهاوى فتسجد أمامه ، إنه لأمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب !!

قال القرطبى فى تفسيره : « الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ، قال ﷺ : « لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة ، يراها الرجل أو ترى له » .

وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً » وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وروى : « من سبعين جزءاً من النبوة » وروى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « جزءاً من أربعين جزءاً من النبوة » ومن حديث ابن عمر : « جزء من تسعة وأربعين جزءاً » ومن حديث العباس : « جزء من خمسين جزءاً من النبوة » ومن حديث أنس : « من ستة وعشرين » وعن عبادة بن الصامت « من أربعة وأربعين جزءاً من

النبوة » والصحيح منها الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين . . . ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين .

وقال ابن كثير فى تفسيره: يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم ، من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه ، وأبوه هو : يعقوب عليه السلام كما قال الإمام أحمد :

عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . مسند الإمام أحمد .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾

« من هنا بداية القصة ، أى اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب ـ والخطاب هنا لمحمد ﷺ ـ يا أبى إنى رأيت فى المنام هذه الرؤيا العجيبة ، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء ، خرت ساجدة لى **﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾** أى ورأيت فى المنام الشمس والقمر ساجدة لى مع الكواكب « قال ابن عباس : كانت الرؤيا فيهم وحياً ، قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنّه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة ،وبين هذه الرؤيا . واجتماعه بأبيه وإخوته فى مصر، أربعون سنة »[1] .

(١) الصاوى على الجلالين . عن صفوة التفاسير مجلد ٢ ص ٤١ .

يوسف الصديق يقص رؤياه على أبيه

.....

يَحكِي رُؤاهُ إلـى أبيـه مـنَ الـشُّيُوخ الـطَّاعنِين ٩
الـشَّيْخُ يَفْهَم أنَّهَا صِدْقٌ مِنَ الـعِلْم المـكِين ١٠
فَوْراً يَقُولُ لِيُوسُف الصِّدِيق ذِى الـعَقْل الفَطِين ! ١١

فلما استيقظ يوسف فى الصباح من نومه، وكانت أحداث رؤياه لا تزال ماثلة فى ذهنه، تملأ وجدانه وعقله، فتوجه نحو أبيه، وألقى عليه تحية الصباح، ثم قال له: يا أبت! إنى رأيت فى منامى رؤيا عظيمة.. رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر كلهم رأيتهم لى ساجدين.

لقد قص يوسف رؤياه على أبيه، ونستطيع هنا أن نقول: إنه قص الرؤيا على أبيه وهو لا يدرى ما معناها، ذلك لأنه كان صبيا صغيراً، لما يبلغ الاحتلام بعد... وهكذا يفعل الناس جميعاً، صغارهم وكبارهم.

فمن يرى رؤيا منامية، فإنه يبادر فيقصها علي أهله، عساه أن يجد فيهم من يعبرها له، ذلك لأن الرؤى المنامية قديماً وحديثاً، يستشف الناس منها ما سوف يأتى به من الخير أو الشر.

لقد قص يوسف الصديق رؤياه على مسامع أبيه، وكان ينتظر منه أن يعبرها له، فيطمئنه بكلمات تبشره، بأن خيراً سوف يصيبه، أو مستقبلاً حسناً ينتظره.. قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه القيم: «القصص القرآنى»، «وتسرح عين يوسف فى وجه أبيه، ليرى على قسماته أثر هذا الحديث عنده، وتأويله الذى أوّله بينه وبين نفسه، وهل هو مما يسر أو مما يسوء ؟!».

لقد استمع يعقوب ولده يوسف، وهو يقص على مسامعه تلك الرؤيا العجيبة!! ولم لا تكون عجيبة ؟ ! لقد كانت سبباً فى تغيير مجرى حياة يوسف، وبداية لرحلة عذاب طويلة قطعها يوسف، فى عديد من المحن، إلى أن انتهى به المطاف إلى المكانة المرجوة التى أعدها الله له، وقد كانت مخبوءة فى ضمير الغيب، بيد أن رؤياه أوحت بهذا.

لقد أدرك يعقوب أن رؤيا يوسف ولده، رؤيا صدق وإلهام، ولا يمكن أن تكون من أضغاث الأحلام التى تثيرها الخواطر والأفكار فى النوم، لا سيما خواطر غلام صغير كيوسف، الذى يخاف أبوه عليه من الذئب.

يعقوب يحذر يوسف من إخوته

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

لا تَقْصُصِ الـرُّؤْيـا عَلَى إخْوانِك المُـتَعَنِّتِين ١٢
قَدْ يَحـسِدُون عَلَيـك فَاحْذَرْ بَطْشَةَ المُـتَحَفِّزِيـن ١٣
لاشَكَّ لِـلـشَّيْطـانِ نَزْغٌ فِى قُلُوبِ الحَاقِدِيـن ١٤
هُوَ أخْطَرُ الأعْداءِ لِـلإِنـسـانِ فِى الـذِّكْرِ المُبِين ١٥

ظل يوسف ينتظر أباه ، بعد أن قص عليه رؤياه ليعبرها له ، وبينما كان يوسف ينتظر من أبيه تعبير رؤياه ، كان يجول بأفكاره هنا وهناك بحثاً عن معناها ، كان أبوه يعقوب فى الوقت نفسه يجول بأفكاره فى واد آخر ، ليس فى مجال تعبير الرؤيا ، ولكنه فى مجال آخر ، ذلك لأنه فهم معنى الرؤيا ، وبالتالى فهم ما سوف يترتب على تعبيرها . . لقد استشف من أحداث رؤيا يوسف ولده ، أنه سوف يكون نبياً رسولاً ، وسوف يكون ذا سلطان وجاه ، وسوف يسود أهله كلهم : أباه وأمه وإخوته .

فمن ثم خشى على يوسف ، أن يسمع إخوته رؤياه تلك ، فيفهموا منها ما فهمه هو ، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه . . وبعد فترة صمت ، كان كل من يعقوب ويوسف ، يجول بفكره أثناءها فى واد غير الذى يجول فيه الآخر ، قال يعقوب ليوسف :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ يوسف لم يصدق أذنيه حينما سمع أباه يحذره أن يقصص رؤياه على إخوته ، لقد دهش يوسف من أبيه ، فبينما هو ينتظر منه تعبير رؤياه ، إذ هو ينهاه أن يقص رؤياه على إخوته . . وشتان ما بين ما كان يتوقعه يوسف ، وبين ما سمعه من أبيه ، إلا أن دهشته لم تطل ، لقد أردف أبوه قائلاً : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ لا غرو أن الشيطان عدو للإنسان كما أخبر بذلك المولى عز وجل فى محكم آياته ، ومن ثم فهو لا يدع فرصة تفوته لممارسة عداوته ، إنه أخطر الأعداء وألدهم لبنى الإنسان ، لا يهنأ له بال وهو يرى الإنسان مستقيماً ، مطيعاً عابداً مولاه ، يتمتع بالأمن والأمان مع كل من حوله . . أحب بنى الإنسان إليه ، هو الذى لا يقيم لعبادة ربه وزناً ، ولا يلتمس إلى الخير سبيلا .

وتالله لو قدر لأحد أن يطلع على سريرة إبليس ، لوجده يقهقه طرباً وسروراً ، وفى أسعد أحواله منذ أن خلقه الله ، ذلك لأنه قد حقق نصراً كبيراً بوسوسته لإخوة يوسف ، وملء صدورهم حقداً عليه . . أقول : فى أسعد أحواله لا لنجاحه فى الوسوسة إليهم فحسب ، ولكن لكون الموسوس إليهم من آل بيت النبوة ، من سلالة إبراهيم خليل الله !!!

« إن يعقوب يقول لابنه الحبيب بملء فيه ، لا تقصص فهو ينهاه نهياً مباشراً صريحاً لا غموض فيه ولا إبهام ، بعدم قص رؤياه على إخوته . إنه لا يقول مثلاً :

« يا بنى ، أرى ألا تقص رؤياك . . » فيكون ليوسف شىء من إبداء الرأى ، فى هذه المسألة ، إن كان له رأى .

ونحن نتساءل: لماذا لم يعط يعقوب ،ابنه يوسف فرصة المشاركة فى هذه المسألة ؟! والجواب على ذلك أن يعقوب قد ثبت له بصفة أكيدة ، أن الإخوة لا يحبون يوسف . ولو قص عليهم رؤياه ، لتمادوا فى حسدهم ، وربما تورطوا مع يوسف ، فيما لا تحمد عقباه (١) » .

---

(١) « تأملات فى سورة يوسف » لمؤلفه الدكتور حسن محمد باجودة . رئيس قسم الدراسات العليا العربية ، جامعة الملك عبد العزيز .

يعقوب يبشر يوسف بعد تحذيره

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

وَلَسَوْفَ تُصْبِحُ إِنْ يَشَأْ رَبِّي مِنَ الْمُتَنَبِّئِين ١٦
وَتَفَسِّرُ الأَحْلامَ ذَاكُم فَضْلُ رَبِّ الْعَالَمِين ١٧
لَقَدْ اصْطَفَى الآبَاءَ قَبْلاً ، فِي عِدادِ الْمُرْسَلِين ١٨
هُوَ فَضْلُ رَبِّ الْعَرْشِ يُعْطَى لِلْعِبَادِ الْمُخْلِصِين ١٩

بعد أن نصح نبيُّ الله يعقوب ، ولده يوسف وحذره قائلاً : لا تقصص رؤياك على إخوتك، لقد كان يخشى عليه من إثارة حقدهم ، وكيدهم له . . استطرد قائلاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ... ﴾ أى إننى أتصورك ياولدى ، سوف تكون ذا مكانة مرموقة بين الناس ، وسوف تكون نبياً مرسلاً بإذن الله ، وبالتالى سوف يمنحك الله علم تأويل الأحلام .

هكذا أتصور مستقبلك يا ولدى ، من وحى رؤياك ، وليس ذلك بعيداً على الله ، وبالتالى لن يكون بدعاً ، فنحن يا ولدى سلالة آباء كرام ، نحن آل بيت النبوة ، ولسوف يكرمك ربك ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب جميعاً ، كما أتمها على أبويك من قبل وهما : إبراهيم خليل الله ، وإسحاق ولده نبى الله . . إذن فليس غريباً أن يعطيك الله مثل ما أعطاهما .

عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ ! قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله . . إلخ » الحديث أخرجه البخارى .

فأنت من تلك السلالة الطاهرة يا ولدى ، وفضل الله يمنحه للمخلصين من عباده ، ويوفقهم إلى الخير ، وينجيهم من كل مكروه ، ويأخذ بأيديهم عندما تظلم الرؤية أمامهم ، فيهديهم إلى الطريق القويم .

قال صاحب تفسير المنار: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ... ﴾

أى ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذى تمثل لك فى رؤياك ، يجتبيك ربك لنفسه ، ويصطفيك على آلك وغيرهم ، فتكون من عباده المخلصين ، ويعلمك من علمه اللدنى ، تأويل الرؤيا وتعبيرها ، أي تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه فى الوجود .

وقال القرطبى فى تفسير : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... ﴾ وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف ، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى آتاه الله تعالى ، من التمكين فى الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ، وأجمعوا على أن ذلك فى تأويل الرؤيا ، قال عبد الله ابن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف بعد أربعين سنة ، ذلك منتهى الرؤيا .

وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده : إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب ، والشمس والقمر ساجدة لك ، كذلك يجتبيك ربك ، يختارك ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك من تأويل الأحاديث . . . يعنى تعبير الرؤيا .

قال صاحب « تأملات فى سورة يوسف » : « لقد أدرك يعقوب ، بأن رؤيا يوسف ، لا يمكن أن تكون أضغاث أحلام ، على الرغم من أن يوسف غلام صغير السن حقاً ، وأن هذه الرؤيا ستعبر فى الحقيقة ، ولكن بعد وقت ما . وأن ابنه قد اصطفى لأمور عظام : بينها يعقوب فى القول على لسانه ، أى ومثل ذلك الاجتباء بالرؤيا الطيبة الصادقة . يجتبيك ربك ، بما تدل عليه هذه الرؤيا ، بالمنزلة الدينية العالية ، وليس وراء منزلة النبوة منزلة ، وبشىء من الملك أيضا » .

للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ ﴾

أبنـــاء يُعْقُوبٍ غَدَوا فِى ٱلْسُنِ المُتَسَائِلِـــين ٢٠
فِى شَأْنِهِـــم قَالَ الإلـه ، فنعْمَ خَيْرِ الـقَائِلِـين ٢١
قَـالُـوا لِبَعْضٍ حَيْـــث كَانُوا فِى حَدِيـث هَامِسِين ٢٢
هَاكُم مَـقَـــالَـتَهُم فَبِئْسَ مَقَالَـــةُ المُتَطَاوِلِين ٢٣

لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات ، ومعان بعيدة المعنى على كثير من الأفهام ، فمن ثم صار الناس يتساءلون عنها ، وأبادر فأقول : إن سياق الآيات يوحى بأن قصة يوسف مع إخوته ، كانت معروفة لدى الذين تساءلوا عنها ، لكنهم ربما كانوا يجلهون تفاصيلها الدقيقة . . لذلك تساءلوا عنها .

ولا غرو فمن فاته العلم بشىء ، أو بحكمته ، أو بوجه العبرة فيه ، سأل عنه من هو أعلم به منه ، ذلك لأن للظواهر غايات ، لا تُعلم حقائقها إلا منها . . فإذا ما كشف الغطاء عن أسرارها ونتائجها ، وقف العقل أمامها منبهراً . . والدليل على ذلك ، أن إخوة يوسف « لو لم يحسدوه ، لما ألقوه فى الجب ، ولو لم يلقوه فى الجب لما وصل إلى عزيز مصر ، ولولا وجوده فى بيت عزيز مصر ، لما أحبته زليخا وروادته عن نفسه واستعصم ، ولما ظهرت نزاهته ، وعُرف شرفه ، ولو لم تحب امرأة العزيز وصواحبها فى كيدهن ، لما ألقى يوسف فى السجن ، ولم لم يسجن ، لما عرفه ساقى الملك ، ولما عرف براعته فى تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقى منه هذا ، لما عرفه ملك مصر ، ولما جعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهله أجمعين ، من المخمصة ، ويأتى بهم إلى مصر فشاركوه فى رياسته ومجده ، بل لما تم قول أبيه له : ﴿ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ فما من حلقة من حلقات هذه السلسلة ، إلا وكان ظاهرها محرقاً ـ شراً ـ وباطنها مشرقاً ـ خيراً ـ فهذه أنواع من آيات الله فى القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة وهى: علم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف ، وعلمه بكذب أولاده فى دعوى أكل الذئب ، ومن شهادة الله له بالعلم ﴿ **وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾

ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان » (١) .

لا يفوتنى أن أقول : إن مجىء قصة يوسف مع إخوته ، تامة فى سورة واحدة ، كان جواباً على تساؤلات وجهت لمحمد ﷺ ، وبدهى أن الجواب على أى سؤال ، يجىء متكاملاً ، لا متفرقاً .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى ـ القصص القرآنى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ . « وهذا يعنى أن قصة يوسف جاءت جواباً على سؤال أو أسئلة ، وردت على النبى ﷺ من اليهود ، أو من المشركين بإيعاز من اليهود ، ويجوز أن يكون عرض القصة جواباً ، على أسئلة واقعة ، أو مفترضة أن تقع من الذين يطلبون العلم بأخبار الماضين ، ويبحثون عنها فى مظانها ، ويسألون كل من يحسبون عنده علم بها . . وها هو ذا القرآن الكريم ، قد جاء فى هذا بالحق كله ، لمن يطلب أنباء هذه القصة ، ويلتمس مواقع العبرة منها .

أما من أراد بالسؤال عنها ، الامتحان والتحدى ، فقد جاءه من الحق ما يخزيه ويفضح ضلاله وبهتانه ، وسوء ظنه » .

---

(١) السطور التى بين الأقواس من تفسير المنار للسيد رشيد رضا جـ ١٢ بتصرف .

أبناء يعقوب وصفوا أباهم بالضلال

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

الـشّيـخ فيـه ضَلالَةُ ، فـلـتَعْلَمُوا الـعلْم الـيَقين ٢٤
أعْطَى لِيُوسُفَ حُبَّـه وأخيـــه مِنْ دُون الـبَنِين ٢٥
أعْطَاهُمـا حُبـاً وقَد صِرْنَا جَمِيـعـاً مُهْمَلـين ٢٦
هَذَا لَعَمْرُ الـلـه ظُلْمٌ مِنْ أبٍ فِى الـنّابـهـين ٢٧

جلس أبناء يعقوب، إخوة يوسف، الصديق الذين امتلأوا حقداً على أخيهم يوسف، لا لذنب جناه ، أو إساءه وقعت منه فى حق أحد منهم . . بل لقد كان يوسف مثلاً أعلى فى الأخلاق ، فمن ثم لم يكن له مع أحد منهم علاقة سيئة .

دار بينهم حديث هامس ، لقد كان موضوع الحديث الهامس ، هو : يوسف الصديق ، إنهم يتبادلون الآراء بشأنه ، فماذا كان حديثهم وهمسهم . . ؟ ! وعلى أى شىء اتفقوا . .؟! لقد قرروا جميعاً أن أباهم، رجل ضال . . والدليل على ضلاله ، تفضيله يوسف وأخاه الشقيق بنيامين علينا ، ونحن الأكثر عدداً ، الأكبر سناً ، الأقوى على تحمل المسئوليات ، الأقدر على التكسب وحمل أعباء المعيشة .

فكونه يفضل يوسف وأخاه علينا بمزيد المحبة، على صغرهما وقلة غنائمها، فهذا لعمر الله يعتبر انحرافاً واضحاً من أبينا فى سلوكه ، إذ المفروض عقلاً أن يفضلنا نحن . . من واقع هذا الفهم القاصر العفن ، تطاولوا فقالوا : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١) ﴾ إنه تائه عن الصواب ، ضال عنه ضلالاً بيناً ، وهل هناك ضلال بعد هذا . . . ؟!

هذا الحكم منهم على أبيهم ، يعتبر تطاولاً ، لا شك فى ذلك ، لأن أباهم منح يوسف وأخاه الأصغر، حبا أكثر لا لذاتهما، ولكن لأنهما أصغر أولاده ، وطبيعة الوالدين دائما ، تمنح الأصغر حبا أكثر . . لقد سئل والد حكيم ، أى ولدك أحب إليك . . ؟! فقال: صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يشفى .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره : لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه فى خطأ بين فى إيثار اثنين على عشرة .

لذلك . . فالدروس المستفادة من هذه القصة :

١ـ وجوب عناية الوالدين بمداراة حبهم الأكثر لبعض أبنائهم .

٢ـ تربية أبنائهم على المحبة والاحترام فيما بينهم .

٣ـ اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بعطاء ، أو حديث ، أو حتى القُبلة بما يعتبره المفضول إهانة له .

بعض الأبناء يمنحهم الله مواهب فطرية : كمكارم الأخلاق ، التقوى ، العلم ، الذكاء المفرط ، لتفضيل هؤلاء ينبغى على الآباء أن يسلكوا سبيل الحكمة ، ولا نخال أن يعقوب كان يخفى عليه هذا المعنى ، ولكن ماذا يفعل الإنسان يغريزته ، وقلبه ، وروحه؟! أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟! كلا ، فقد كان رسول الله يقسم بين نسائه بالعدل ، من حيث المبيت ، بيد أنه كان يحب عائشة أكثر من كل نسائه فمن ثم كان يقول : «اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » أخرجه البخارى .

« إن يوسف وأخاه على التوالى أصغر أبناء يعقوب الاثنى عشر ، وإنه لشىء طبيعى أن ينال صغار الأبناء من المحبة والرعاية . لاستحقاقهم لذلك وحاجتهم له أكثر من كبارهم . لقد كان خليقاً بإخوة يوسف ، أن ينظروا إلى هذه المسألة من هاتين الزاويتين .

والذى حدث هو أنهم نظروا إلى المسألة نظرة عقلية صرفة ، إنهم يجعلون يوسف وأخاه فى كفة ، وهم جميعاً فى كفة أخرى . ومن زاوية هذه النظرة العقلية ، هم يستحقون ما لا يستحق يوسف وأخوه .

إن يوسف وأخاه اثنان ، وهم عشرة ، والعدل فى نظرهم يقضى بألا ينال الاثنان ما ينال العشرة ، فكيف إذا كان نصيب الاثنين أكثر من نصيب العشرة ؟!

وإن نظرتهم العقلية ، تجعلهم ينكرون هذا الحب . لهذين الغلامين الصغيرين ، اللذين لا يجلبان نفعاً ، ولا يدفعان شراً : بينما هم العشرة ، الذين تعصب بهم الأمور ، وتدفع بهم الشدائد لا ينالون حظاً كما ينال الاثنان ، والاثنان فقط » من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

انتصار رأى الشيطان فى أبناء يعقوب

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ ﴾ .

إنّا نُريـــدُ عقابَه ، حتّى يَتُوبَ ويَـــستَبِـــين ٢٨
فَلـــنَقْتُلَـــنَّ غُلامَه حتّى نَكُونَ الـــفَائِزيـــن ٢٩
إذْمَا قَتَلْنَا حبَّهُ يَهْدَأُ هَدُوءَ المـــــــــكْرَهين ٣٠
ونَفُوزُ بالحُبِّ الـــذى لَمْ نَلْقَهُ طُولَ الـــسِّنين ٣١
ولَـــسَوْفَ نَغْدُو بَعْدَ ذَلـــك فِى عِدادِ الـصّالِحـــين ٣٢

بعد أن اقتنع أبناء يعقوب، بعد الحوار الهامس، بخطأ أبيهم ، وأن ما وصفوه به من الضلال لم يعترض عليه أحد منهم. .إذن فكلهم متفقون على رأى واحد. .لذلك فرروا بالإجماع معاقبة أبيهم ، قد قرروا معاقبته ، ولكن بطريقة غير مباشرة . . كيف . . ؟ !

تلك العقوبة هى : إبعاد يوسف من حياة أبيه ، وبأى وسيلة ممكنة ، دونما تدبر لما سوف يترتب على هذا التصرف من آثار سيئة ، وعواقب وخيمة .

فما داموا قد ارتضوا جميعاً هذا القرار ـ معـاقبة أبيهم ـ إذن فلم يبق أمامهم سوى الاتفاق على صورة العقوبة ، كيف . . ؟! وبأى شكل . . ؟!

وبعد لحظـات من الصمت ، كان كل واحد مـنهم يفكر فى صورة الـعقوبة ، وإذا بقائلهم يقول :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ... ﴾ . يالله !! إنهم يريدون معاقبة أبيهم ، ولـكن فى شخص حبّه يوسف . . إذن فالعقوبة بالنسبـة لأبيهم معنوية، صورتـها آلام وأحزان ، أما الـعقوبة الحـقيقيـة ، فهى التـى سوف يوقعـونها بيـوسف البرىء، الخالى الذهن عن أحقادهم وعدائهم وتدبيرهم . . إنه ضحية ، ولا ذنب له فى هذا كلـه ، إلا أن أباه أحبه ، فكـان حب أبيه وبالاً عـليه ، فصـار بهذا كأصبـع النادم حينما يعضه أسفاً وحسرة كما قال الشاعر العربى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكمو : فكأننى سبّابة المتندم

لقد اتفقوا جميعا على هذا الرأى القائل ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ . .﴾ إلخ، ومن ثم فأستطيع أن أقول: إن الشيطان كان معهم فى جلستهم التى اتخذوا فيها ذاك القرار ، بل كان سيد الجلسة، يتحدثون بما يرضيه ، ولا يزال يزين جريمتهم ، ويصور لهم النتيجة الحسنة التى يتمنونها جميعاً ، ظل يوسوس لهم حتى انتصر رأى الشيطان فى نفوسهم ورءوسهم ، على رأى الإيمان . . وإن جمعاً ينتصر فيه رأى الشيطان لهو جمع ضال تائه !!!

وكم للشيطان من انتصارات حققها، لا سيما بشأن انبياء الله ، فقد انتصر قبل ذلك على جمع الضلال ، أولئك الذين قرروا إلقاء إبراهيم فى النار !! وانتصر بعد ذلك على جمع أشد ضلالاً، أولئك الذين اجتمعوا فى دار الندوة، فقرروا قتل محمد(١) ﷺ . . وفى كل مرة تكون الهزيمة فى النهاية للشيطان وأعوانه . . لقد تصور إخوة يوسف ، بتفكيرهم القاصر أنهم حينما يبعدون يوسف من حياة أبيه ، سوف يخلو وجهه لهم ، فمن ثم لا يجد أمامه سواهم، وبالتالى سوف يمنحهم حبه الذى حرموه . . ولم لا ، فذلك شيء منطقى ومعقول كما تصوروا . . إنهم يشعرون بالظمأ لذلك الحب الذى يؤثر به ولديه يوسف وأخاه بنيامين ثم قالوا: وبعد أن نتخلص من يوسف : إما بقتله أو تغريبه ، سوف نتوب إلى الله ، فنكون قوماً صالحين، مصلحين لأعمالنا بما يكفر إثمها ، فيرضى عنا أبونا ، ويرضى عنا ربنا !!!

---

(١) اجتمع مشركو مكة فى دار الندوة ، للتشاور فى أمر رسول الله ﷺ ، جاءهم إبليس في صورة رجل شيخ ، مدعياً أنه من أهل نجد ، قال إنه سمع بالذى اجتمعوا له ، وأراد أن يشاركهم الرأي والنصيحة ، فأذنوا له . . وفى هذا الاجتماع اتفقوا على قتل محمد ﷺ ، كما هو مذكور فى السيرة النبوية . ابن هشام ، ابن كثير ، تغريدة السيرة النبوية . للمؤلف .

منطق العقل يهزم رأى الشيطان

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

لـــكـــنّ أكْبَرَهُمَ يَقُولُ ، وكَانَ ذَا عَقْلٍ فَطِين ٣٣
لا ، لا أوافقُكُم عَلـى قَتْلِ الـغُلام المـسْتَكِين ٣٤
يـــاإخْوَتَاهُ لتَعْلَمُوا ، فَالـــقَتْلُ فعْل المجْرِمين ٣٥
والـرأىُ عِندى فَاسْمَعُوه ، ولَا تَكُونُوا مُعْرِضين ٣٦

حينما قرروا قتل يـوسف جميعهم . . ران على جمعهم ظل مـن الكآبة والرهبة ، لقد شل تفكيرهم، فلا تسمع أحداً منهم ينبس ببنت شفة . . صمت رهيب خيم عليهم ، فكأنمـا على رءوسهـم الطير ، ولـم لا ، فالأمر جد خـطير . . ذلك لأن الـقرار الذى اتخذوه بقـتل يوسف ، قد يكون سـهلاً ، لأنه قول يقال فـحسب . . أما التنفـيذ فهو الأمر الصعب ، هو الممارسة الفعلية لجريمة القتل . . وبعد لحظة صمت قصيرة فى قياس الزمن ، بيد أنها كانت طويلة ، طويلة جـداً فى نفوس القوم ، لما صاحبها من أحاسيس وأفكار وانفعالات شتى .

بعد هذا الصمـت الذى ساد مجلسهم ، إذا صوت أحدهم قد بـدد السكون المخيم عليهم . . إنه أخوهم الأكبر ، إنه يعترض . . . يالـله !! لقد استيقظ ضميره قبل فوات الأوان فقـال : إنى أعترض يـا إخوتى علـى هذا القرار . . . قـرار قتل يوسـف ، بل أعترض على مجرد الـتفكير فى قتل يوسف ، ما ذنب هذا الـغلام . . . ؟! لا تقتلوه يا إخوتى ، فالقتل جـريمة ينهى عنها رب السماء ، ولا يأتيـها إلا المجرمون ، أفتريدون أن تكونوا مجرمين ؟! لا ، وألف لا .

لقد فوجئـوا باعتراض أخيهم ، فتوجهـوا كلهم نحوه ، تعلقت أبـصارهم به ، ثم قالوا له : فماذا إذن ؟! لقد كانوا جميعا متحـيرين ، لقد أعمامهم الحقد ، فقرروا قتل يوسف ، ولا عجب ، فجناية قتله لم تكن مقصودة لذاتها ، والمقصود هو إبعاد يوسف فقط بالموت أو بالحياة سيان !!! فمن ثم كانوا فى حاجة إلى من يردهم ، ويوجههم إلى صواب كانوا يفتقدونه ، ورُشد كان غائبا عنهم .

قال ابن كـثير فى تفـسيره : « ﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ أى ، لا تصـلوا فى عـداوته

وبغضه إلى قتله ، لم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لابد من إمضائه وإتمامه ، من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل ، وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب » .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه القيم : « أنبياء الله » استمر الحوار بعد فكرة البئر ، غير أنهم كانوا يعودون إليها كحل من أسلم الحلول ، انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة النفى والإبعاد ، كانت أذكى فكرة . . نفهم من هذا أن الإخوة رغم شرهم وحسدهم ، كان فى قلوبهم ، أو قلوب بعضهم بعض خير لم يمت بعد » .

قال تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ... ﴾ . إن هذا الأخ، وضع الله تعالى فى قلبه كمية ضئيلة من الود ليوسف ، ليرفض بشدة الرأيين ،ويعتبرهما قتلاً ، سواء فى ذلك قتل يوسف بطريق مباشر أو غير مباشر ، ومن ثم هو ينهاهم بقوة ووضوح ، واستقامة عن التورط فى جريمة قتل نفس ، حرم الله قتلها إلا بالحق .

وما معنى أن يسوى هذا الأخ بين الرأيين ، ويجعل الطرح أرضاً بمنزلة القتل المباشر ؟! مع أنه من المحتمل أن ينجو الغلام يوسف من الأرض المهلكة .

وهذا الاحتمال وإن كان ضئيلا جداً ، إلا أنه يظل يزاحم الاحتمال الراجح ، فلا يجعله وحيداً ، ولكن شبه وحيد ،ولا يجعله أكيداً ولكن شبه أكيد. من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

استبعاد فكرة القتل والاكتفاء بإلقائه فى الجب

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

فِى قَعْرِ جُبٍّ أَنْزِلُوه ، وَعَنْه عُودُوا قَافِلِـــــين ٣٧
بَعْضُ الـــقَوَافِلِ عَـــلَّهُـــم إِذْمَا يَكُونُوا رَاحِلِين ٣٨
إِنْ يَـأْت وَارِدُهُم ، فَسَوْفَ يَعُودُ بِالـصَّيْدِ الـثَّمِـين ٣٩
هَذَا هُو الـرَّأْيُ الـصَّوَابُ ، فَلا تَكُونُوا جَاهِلِـين ٤٠

بعد أن اعترض أخوهم الأكبر على فكرة الـقتل ، ولم يقولوا شيئاً ، لا رفضاً ولا استحسـاناً ، أردف برأى آخر ، فيـه رأفة ورحمة دون القـتل فقال : إن التخـلص من يوسف أمر سهل ، وليس صعبا يا إخوتـى ، والرأى الصواب هو : أن نلقيه فى البئر ، ثم نتركه فيها ، ولا غرو فـإننا حينما نلقيه فى البئر ، سوف لا يمـوت ، والبئر قطعاً تمر عليهـا القوافل الكثـيرة ، غادية ورائحة ، ولسـوف يأتى ورادهم لأجل الماء ، وحـينئذ سوف يعثرون عليه ، وسـوف ينتشلونه أيضا من البئر ، وسوف يـفرحون به ، وبالتالى سوف يرحـلون به معهـم ، إلى حيث لا ترونـه بعد ذلك أبـداً ، ومن ثم يقتـصر حب أبيكم عليكم ، فلا يشارككم فيه أحد . . إذا لا خيار له فى ذلك ، لأن حبّه ذهب ولن يعود ، هذا من ناحية . . ومن ناحية أخـرى ، نكون قد تخلصنا من يوسف ، دون أن نزهق روحه . . فهو غلام صـغير ، لا يدرى شيئاً مما نعانيه ، ولا شأن له بـتفضيل أبيه علينا ، أى إن كان لابد من الخلاص منه . فاكتفوا بذلك .

هذا هو الرأى الصواب يا إخوتى ، ولا إخالكم تـخالفوننى فى هذا الرأى الصائب الذى يجنبكم ارتكاب جريمة القتل الوحشية .

لقد وافقوا على رأى أخيهم الأكبر ، برفض فكرة القتل ، بل شعروا بارتياح لتلك الفكرة التى أنقذتهم من التورط فى جريمة قـتل ، لم يفكروا في نتائجها ، لم يتدارسوا ما سوف يترتب عليها .

لقد انهزمت فى نفوسهم فكرة القتل ، وأيدوا فكرة أخيهم الأكبر بإلقاء يوسف فى البئر . .يالله!!لقد كانت فكرة القتل هى الوسيلة الوحيدة لإبعاد يوسف من حياة أبيه . . ضاق أفقهم وتفكـيرهم عن وسيلة غيرها ، فلما وجـدوا وسيلة أخرى أخف وأرحم ،

سارعوا بتأييدها . . ولولا أن أخاهم الأكبر ، أشار عليهم بفكرته الأخيرة ، وقد كانت هى طوق النجاة ليوسف ، لأقدموا على قتله ، ما فى ذلك من شك .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : « هذا رأى رآه أحدهم فى الأمر الذى دبروه، وهو الأخذ بأحد التدبيرين اللذين دبروهما للخلاص من يوسف، وذلك فى قولهم : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ وهذا الرأى يقضى بالعدول عن القتل ، إلى التطويح به فى مجهل من مجاهل الأرض ، فهذا على ما به أهون من القتل ، وبه يتحقق ما أرادوه من التفرقة بين يوسف وأبيهم » .

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فما معنى قوله : ﴿ وَأَلْقُوهُ ... ﴾ الحقيقة أن الأخ الذى أطلق هذه الجملة ، كان مدفوعا بحرارة مناقشة إخوته لهذه المسألة ، إنهم يقترحون قتل يوسف ، أو طرحه أرضا ، وهو يريد إنقاذ حياة يوسف ، والتخلص منه ، وإرضاء إخوته المندفعين بحماس متطرف ، فلم يشأ أن يستعمل مثلاً جملة « واجعلوه » أو « وضعوه » فلعل الإخوة الحانقين على يوسف ، لا يرضيهم تعبير كهذا ، لهذا جارى إخوته فى ابتداء عرض اقتراحه . فاستعمل تعبيراً مناسباً ، يرضى عنه إخوته المتحمسون ، ليؤكد أن فجوة الانتقال من رأيهم إلى رأيه ليست كبيرة ، وهذه براعة من هذا الأخ ، والذى يدل على أن هذا هو عين المراد أن الآية القرآنية التى تشير إلى عملية التنفيذ تستعمل جملة « أن يجعلوه » فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وبعد إرضاء الإخوة المتحمسين باستعمال جملة « وألقوه » تأتى عملية توضيح الفكرة ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وإنه لا يقول « وألقوه فى الجب » وهو البئر التى لما تطو بعد ، فيفهم من ذلك أن المراد إغراق يوسف ، بإلقائه فى ماء الجب ، ولا فرق بناء على ذلك بين الرأيين الأول والثانى ، وهذا الرأى .

أبناء يعقوب يتلطفون مع أبيهم ليعطيهم يوسف

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾

كَيْفَ السَّبِيلُ لِكَي يَتِمَّ مُخَطَّطُ المُتآمِرِين ؟! ٤١
جَاءُوا أَبَاهُم فِي ثِيَابِ الزُّهْدِ كَالمُتَبَتِّلِين ٤٢
قَالُوا لَهُ قَوْلاً كَذُوباً ، بِئْسَ قَوْماً كَاذِبِين ٤٣
لِمَ لَمْ تَثِقْ فِينَا ، فَلَسْنَا يَا أَبَانَا خَائِنِين ٤٤

إن فكرة إلقاء يوسف فى البئر التى أقروها وارتضوها جميعاً ، تعتبر أخف ضرراً من جريمة القتل ، وإن كان من المحتمل أن يموت يوسف فى أعماق البئر ، جوعاً ورعباً إلا أن احتمال الحياة والبقاء ممكن أيضاً ، فى ظل هذه الفكرة .

بعد هذا الاتفاق الإجرامى ، بقى عليهم شىء هام ، وعليه يترتب نجاح الخطة أو فشلها ، ما هو هذا الشىء ؟! عليهم أن يحتالوا على أبيهم ، ليعطيهم يوسف ليذهب معهم إلى الصحراء ، حيث مراعى أغنامهم ، ليتمكنوا من إتمام جريمتهم ، التى ارتضوها وارتاحوا لها .

جلسوا حول أبيهم، تظاهروا أمامه بالوداعة ولين الجانب ، ودار الحديث بينهم وبين أبيهم، فى ودّ مصنوع، وتلطف فيه تكلّف، ثم عرجوا بالحديث إلى ما ينشدونه، فورد ذكر يوسف على ألسنتهم ، فأثنوا عليه ثناء عاطراً ، وكل واحد منهم أبدى عطفاً عليه، وحباً له، ثم قال أحدهم: وبالنسبة ليوسف، فإننا يا أبانا عاتبون عليك أشد العتاب، ذلك لأنك لا تثق فينا، وبالتالى فلم ترسل يوسف معنا، لينطلق فى الصحراء ، حيث اللهو البرىء، واللعب الذى يمد الجسم بالنشاط والحيوية والقوة، إننا نشعر بالمهانة لكونك لا تأمنا على يوسف .

فأى شىء تبينته فى سلوكنا ، جعلك تشك فى أمانتنا ؟!

من سياق الآية نستطيع أن نقول: إن أبناء يعقوب كانوا قد طلبوا من أبيهم قبل ذلك أن يسمح ليوسف بالذهاب معهم، فأبى، لذلك قالوا: ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ .

لقد تظاهروا أمام أبيهم بالبراءة والسذاجة ، ليخدعوه ويستميلوه ، فى حين أنهم

كانوا يخفون فى أعماقهم خبثاً وحقداً وشراً ، وتدبيراً لجريمة ظلت محفوظة فى وعى الزمان ، ولأهميتها ، صاغها المولى عز وجل قرآنا يتلى على سمع الدنيا كلها ، شاهداً على قسوة الإنسان حينما يركب الشيطان رأسه ، ويملأ الحقد صدره ، ولتكون عبرة كل معتبر يتناقلها الناس ، قصة من أعجب قصص البشر .

وأول ما يلاحظ على هذه الآية التى جاءت على لسان الإخوة : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ إن كلامهم الاستفهامى هذا يشوبه شىء كبير من التعجب ، فهم يتساءلون لم لا يأمنهم يعقوب على يوسف ، مع أنهم ناصحون له أمناء عليه .

ونستطيع أن نفهم من قولهم : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ الذى يعتبر أول كلام مباشر مع يعقوب عن يوسف ، بعد اتفاقهم على الرأى الثالث ، أن هذه هى نظرة يعقوب إليهم بشأن يوسف ، وأن هذا الاستفهام التعجبى منهم ، ليس سؤال امتداد طبيعى لموقف يعقوب ، غير المؤتمن دائما للإخوة على يوسف ، ذلك الموقف الذى كان لا يقع منهم موقع الرضا ، مع يقينهم بأن ذلك من حق يعقوب ، لأنهم خير من يعلم بحقيقة حسدهم وبغضهم ليوسف .

أبناء يعقوب يؤكدون لأبيهم حرصهم على يوسف

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

هَذَا أَخُونَا يُوسُف فِى السِّجْنِ يَقْعُدُ كَالسَّجِين ٤٥
أَرْسِلْه مَعَنَا صُحْبَةَ الأَغْنَامِ نَغْدُو لاَعِبِين ٤٦
إِنَّا سَنَحْرُسُه ، وَسَوْفَ يَعُودُ عَوْدَ الآمِنِين ٤٧

ثم أردف متحدثهم فقال موجها حديثه إلى أبيه الذى يرفض بشدة ، السماح ليوسف بالذهاب مع إخوته : يا أبانا ! إن يوسف لم يبرح البيت ، دائماً فى جوارك ، لا تدعه يبتعد عنك ، كأنه نزيل سجن ، فاتركه لنا ، أرسله معنا يمارس حياة الانطلاق والحركة ،يلهو مع إخوته وأترابه ، يروح عن نفسه ، ألا تنظر إليه فتراه ذابلاً ، وصحته فى هزال ؟! فدعه يخرج يروض جسمه فيتعرض لضحى الشمس وهبوب الرياح .

ولتعلم أننا لن نهمله يا أبانا، سوف نحرص عليه الحرص كله، وسوف نخصه بالنصح الصادق، الخالى من الغش والتقصير، سوف نكون كلنا عيوناً حوله تحميه من كل سوء .

ويبدو أنهم كانوا قد شعروا بتغير أبيهم نحوهم، لا سيما بعد أن رأى يوسف رؤياه، وأيضا يحتمل أنهم قد علموا برؤيا يوسف : لذلك كان شعورهم بتغير أبيهم نحوهم ، وعلمهم برؤيا يوسف ، عاملين انعكسا على سلوكهم ، فتنكروا له تنكراً مستوراً ، بيد أن الشيخ استطاع أن يلمحه دون أن يدروا .

والواقع أن شعورهم بارتياب أبيهم في أمانتهم ، جعلهم يقولون هذا القول الذى يوحى لسامعه، أنهم قوم مشكوك فى أمانتهم وسلوكهم . . فهم بهذا يدفعون عن أنفسهم تهمة معلنة . . ثم أردفوا قائلين : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

عندما نخرج غداً بأغنامنا كعادتنا ، إلى الصحراء حيث مراعى الأغنام ، أعطنا يوسف يا أبانا ، يشاركنا لهونا وانطلاقنا ، فى سرور وحرية ، فنأكل ما يطيب لنا من الثمار ، ونتسابق ونتصارع ونرمى بالسهام ، وحينئذ سوف يتيسر ليوسف أن يرى مالم يكن قد رآه من قبل ، ويعلم ما لم يكن قد علمه أيضا ، وهو حبيس البيت عندك .

سوف نكون يا أبانا حريصين على يوسف ، أكثر من حرصنا على أنفسنا ، وسوف

نحفظه من كل أذى، يالله!! إنهم يؤكدون حديثهم بالحرص على يوسف، وهذا هو الحال دائما بالنسبة لكل متحدث ، حيث يشعر أن سامعيه لا يصدقون حديثه ، فإنه يلجأ إلى المؤكدات، وقد يلجأ إلى القسم، فى حين أن هذا لا يزيد السامعين له إلا شكا فى حديثه.

قوله تعالى : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ لقد لمس الإخوة ببراعة ، مسألة عدم الائتمان ، وأظهروا أن ذلك لا مبرر له ، وقد اتخذوا من كل ذلك توطئة لطلبهم الصريح بأخذ يوسف ، كى يرتع ويلعب ، فإنهم له لحافظون .

هل يستطيع يعقوب أن يرفض الطلب ، مع علمه بأن ذلك قد يكون له رد فعل سيء عند الإخوة ، ويكون سبباً فى جعل كيدهم المخشى ليوسف حقيقة ؟!

ومن يدرى؟! ربما يكون الإخوة قد تبين لهم خطأ نظرتهم السابقة لأخيهم فعدلوا عنها، وعادوا إلى جادة الصواب، خاصة وأن تعبيرهم فى النصح ليوسف وحفظهم له قوى الدلالة، فنحن بصدد ـ إن ـ التى تفيد التوكيد، وقد جاءت مرتين، ولام التوكيد التى جاءت مكررة مرتين كذلك ، أعنى فى قولهم « وإنا له لناصحون » و « وإنا له لحافظون » .

وهل معنى هذا أن يعقوب يستطيع أن يلبى طلبهم ؟! فى الوقت الذى يجد نفسه أميل إلى عدم الائتمان ، لأن تحولهم إلى إظهار المودة ليوسف مفاجئ ، فهم لم يظهروا هذه المودة من قبل ، بل إنهم جعلوا ذلك توطئة لطلبهم السريع بإرسال يوسف معهم فى اليوم التالى ، فما السبب وراء هذا التحول المفاجئ ؟! هل هناك سرّ يكمن وراء ذلك ؟! وما هو هذا السر ؟! أهناك شرّ أريد به يوسف ؟! وما نوع ذلك الشرّ ؟! من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » صفحة ١٥٣ .

يعقوب يجعل الذئب ستاراً لتخوفه على يوسف

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

فَأَجَابَهُم ، لا تَأْخُذُوه ، أَخَاف من غـدر السـنين ٤٨
الـــذِّئْبُ يَأْكُلُه ، وأَخْشَى أَنْ تَكُونُوا غَافلـــين ٤٩
قَالُوا لَه : هَذَا المـقَالُ يُسـيـئُنَا فِى الـعَالَمـين ٥٠

بعد أن سألوا أباهم أن يرسل معهم أخاهـم يوسف، وكان سؤالهم فيه عتاب شديد لأبيهم لكونه لا يأمنهم على أخيهم يوسف، وفيه أيضا توكيد بالحرص الشديد عليه، وفيه أيضا مبررات أخرى ، ليسمح ليوسف بالذهاب معهم. فكان جوابه على كل ما قالوه :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

أى إن ذهاب يوسف معكم ، سوف يحزننى ، فـإننى أخشى عليه من كل شىء ، ولا غرو فالـصحراء مملوءة بالـوحوش الفاتكة ، فـأخشى أن تغفلـوا عنه وأنتم تلـعبون وتمرحون ، فينقض عليه أحد الذئاب الكاسرة فيأكله .

هكذا نرى يعقوب ، لم يفصح لأولاده عن حقيقة شكوكه فى أمانتهم وسلوكهم ، فى عدم اطمـئنانه لإرسال يوسف معـهم ، بل لجأ إلى وسيلة أخـرى هى : الخوف من الذئب ، وهذا أمر محتمل الوقوع ، بيد أنه بعيد جداً ، ولكن الشيخ جعله ستاراً أخفى وراءه حقيقة شعوره وتخوفه منهم ، هم على يوسف. يالله !! إن ذكر يعقوب للذئب ، فتح البـاب أمام أبنائه ليـدافعوا عن أنفسهـم ، وليؤكدوا حرصهم وتـفانيهم جمـيعاً فى حمايـة يوسف ، من أى أذى يصـيبه ، هذا من نـاحية ، ومن نـاحية أخرى فإنـهم قد وجدوا الـسبب الذى يتذرعون به لأبيهم ، حين يعودون له بغير يوسف .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » « ويلتقط أبناء يعقوب من فم أبيهم قوله : ﴿ أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الـذِّئْبُ ﴾ ويتخذون من هذا الـذئب المتخيل ، حقيقة يضعونها بين يدى أبيهم بعد أن يمضوا أمرهـم فى يوسف ، ثم يجيئون إلى أبيهم بتأويل ما توقعه .. لقد أكله الذئب كما توقعت !! » .

قال القرطبى في قوله : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ « وذلك أنه ـ أى يعقوب ، رأى فى منامه أن الذئب شد على يوسف ، فلذلك خافه عليه قال الكلبى : وقيل إنه رأى فى منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف فى بطن الوادى ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته ، تريد أكله ، فدرأها عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ، فكانت العشرة إخوته لما تمالأوا على قتله ، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه فى الأرض ، هو مقامه فى الجب ثلاثة أيام ، قيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ، فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم ، وإنما خاف الذئب لأنه أغلب ما يُخاف فى الصحارى » .

قال الزمخشرى : اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثانى : خوفه عليه من الذئب ، إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم .

قال الدكتور حسن محمد باجوده فى كتابه ـ تأملات فى سورة يوسف ـ « ولو أن نية الإخوة حسنة ، ولم يكونوا مصممين على الغدر بيوسف ، لكان فى جواب يعقوب الأقرب إلى الرفض ، صارف لهم عن طلبهم أخذ يوسف ، وحافز لهم على العدول عن هذه الفكرة أساساً ، التى لم يرتح لها يعقوب أصلا ، وبما أنهم مصممون على أمر ما ، يتعلق نجاحه على ذهاب يوسف معهم ، لذلك استمروا فى الكلام ، مصرين على الطلب » .

أبناء يعقوب يقولون : لن يأكله الذئب ونحن عصبة

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾

تَاللّه إن يَأكلْ أخَانَا الذئبُ ، صِرْنَا خَاسِرِين ٥١
إنّا رِجَالٌ أقْوِيَاءُ نَقِيه شَرَّ الكَاسِرِين ٥٢
كَذَبُوا لَقَدْ خَانُوا الأَمَانَة ، لَمْ يَكُونُوا صَادِقِين ٥٣

قال أبناء يعقوب لأبيهم : إنك يا أبانا بهذا القول تهيننا إهانة بالغة ، فأى ذئب هذا الذى يستطيع أن يصل ليوسف ، ونحن عصبة عشرة رجال ، وما نحن فى نظرك إذاً إلا عصبة من النعاج أو الأطفال . . . إن الذئب لا يمكن أن يقترب من مكان فيه رجال ، وإنما يقترب من الأغنام : الضأن والماعز التى لا راعى لها .

لقد خسرنا وخبنا إذاً، إذا كان الذئب يحوم حول المكان الذى نرعى ونلعب فيه . . لا لا يا أبانا ، فنحن كفء لحماية أخينا يوسف من كل الكواسر ، وإذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عنه ، فنحن إذاً والله أعجز من أن ندفعه عن أغنامنا .

والواقع أنهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون ، إنهم يحتالون على أبيهم ويبدون له حرصهم وحدبهم على يوسف ، وهم في الوقت نفسه قد بيتوا له الغدر ، وقد صدق فيهم قول الله تعالى فى الحديث القدسى : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر فبى حلفت . . إلخ »[1] .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه : « أنبياء الله » أهذا معقول ؟! نحن عشرة من الرجال، فهل نغفل عنه ونحن كثير ؟! نكون خاسرين غير أهل للرجولة ،لو وقع ذلك ، لن يأكله الذئب ، ولا داعى للخوف عليه .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : ولهذا فهم يقفون مع أبيهم من أمر هذا الذئب موقف التحدى ، وأن الذئب لا يجرؤ أن يقترب من حماهم ،

(١) عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى قال : لقد خلقت خلقاً ، ألسنتهم احلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيران ، فبى يغترون ؟! أم علىّ يجترؤون ؟! » أخرجه الترمذى (٢٤٠٥) ، وقال : « حسن غريب » .

وهم عشرة رجال . . . ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ اللام للقسم ، أى والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء ، إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار .

فهذا رد على اتهام من أبيهم بالغفلة وسوء الحفظ ، لما معهم من أنعام ومتاع ، حتى لتغشاهم الذئاب ، وتعيث فساداً فى ماشيتهم ، ذلك بعد اتهامهم بالتهاون وعدم الحرص على سلامة أخيهم .

على كل حال ، لقد ائتمنهم أبوهم على أخيهم يوسف ، فخانوا الأمانة ، وتلك لعمر الله وصمة عار يندى لها جبين الإنسانية ، وعاها التاريخ في ذاكرته الحافظة ، ولهولها وفظاعتها وغرابتها ، ذكرها القرآن فى محكم آياته . . . فكون عشرة رجال : أولاد نبى مرسل يفعلون هذا الفعل المخزى المخجل ، فإن جبين الإنسانية لا يندى فحسب ، بل يتوارى حياء وخجلاً .

« لماذا أغفل الإخوة حديث يعقوب عن ذات نفسه ، وركزوا كل جوابهم على الذئب وذات أنفسهم ؟! والجواب على ذلك ، أن الأخوة الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، كان كلام يعقوب ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ بالنسبة لهم طعنة بلغت عمق أعماقهم ، لأن هذا القول يبلور السبب الذى من أجله ، هم يحسدون يوسف كل ذلك الحسد ، ألا وهو حب يعقوب غير المتناهى له .

وهم قد أدركوا تمام الإدراك ، أن العبارة قد تخونهم لو حاولوا الرد على يعقوب ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي ... ﴾ لأنهم يبغضون الحديث فى هذه المسألة بالذات ، وقد عدلوا إلى الحديث عن الجزئية الأخرى ـ تخوفه على يوسف من الذئب ـ تأملات فى سورة يوسف .